مِنْ أجْلِ جِوارٍ
لا يُفسِدُ الوُدُّ قضِيَّة

بقلم

د/ محمود محمد عمايرة

تمهيد

سنة الاختلاف

في مجال الطبيعة :

في مجال الطبيعة : تتعدد الألوان . وتختلف الأشكال . فيكون ،، الجمال ! يقول الحق سبحانه :

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء أن الله عزيز غفور)[1] .

إن خشية العلماء هنا لتنبع من استشعار قدرة الحق سبحانه وإرادته البادية في هــــذا الصنع العجيب الجميل ،، والذى كان اختلافه وتنوعه سر جماله .

وهل يعيب السماء أنها مرعى للسحب المختلفة . يسوقها الرعد بسياط من البرق ؟

سوف تصبح السماء فراغا لا نهائيا ،، إذا خلت من السحب المختلفة الراكضة ،، وإذا لم تكن سحب ،، لم تكن أمطار ،، ولا أنهار ،، ولا زروع ،، ولا حياة .

وبنفس القوة فأنا نقول :

---

(١) فاطر ٢٨

إن الحياة لتبدو فراغا لا نهائياً مملا ،، إذا خلت من الآراء المشتجرة الباحثة عن الحق .

وإذا لم يكن هناك خلاف فى وجهات النظر ،، لم تكن هناك آمال فى مستقبل أفضل ،، ولا فى قضايا أصح .

إن الشجرة تتجرد من أوراقها الجافة ،، ولتفسح المجال أمام براعم جديدة ، تتحقق بها نضارتها ، فتورق وتثمر .

وكذلك الإنسان :

لمنه لا يورق ولا يثمر إلا بالتخلص من آرائه الجافة اليابسة !

يتخلص منها بعقله هو ،، أو بعقول الآخرين .

يقول الشاعر :

إذا عن أمر فاستشر فيه صاحبا
وإن كنت ذا رأى تشير على الصحب

فإنى رأيت العين تجهل نفسها
وتدرك ما قد حل فى موضع الشهب

ولا بأس فى الإسلام من تعدد الآراء ، لتتسع الدائرة التى يتحرك فيها المكلفون تيسيرا وعونا .

ذلك بأنها ليست أهواء تتناطح ، بيد أنها زهور تتكامل وتتلاقح ، زهور متعددة الألوان والطعوم .

وبعد الخلاف يبدو أكثر من لون ،، وأكثر من طعم ، ، وأكثر من رائحة ،، وذلك أمر ضرورى حتى لا نصاب بعمى الألوان فلا نبصر إلا لونا واحداً !

إذاً ،، فلا خلاف على ضرورة الاختلاف لكن المهم: كيف نتفاهم؟!

النظرة المزدوجة :

فى عصر اختفت فيه الحدود ، وتداخلت الثقافات ، وذابت الجزر المنعزلة تصبح فيه النظرية الأحادية للأمور مستحيلة أن لم تكن نوعا من الإنتحار الفكرى ، وازدواجية النظرة هنا لاتعنى أن يكون الإنسان له أكثر من رأى ، أو أن يكون قادراً على مسايرة الأمور وعلى التكون حسب الظروف ، بل تعنى ببساطة «آخرية الآخرين» ، أو حق الآخرين أو حق الآخرين فى الاختلاف ، حقهم فى أن يكونوا آخرين ، ليست العملية عملية تسامح فكرى أو ثقافى ، بل هى حق الانسان الآخر فى أن يكون مختلفاً ولا يستتبع هذا بالطبع أن يفقد المرء تفرده واختلافه ، إذ أن حق الآخر فى أن يكون آخراً ينسحب أيضاً بنفس القدر الذى ينحسب فيه على الآخر ، وهذا الحق ليس تنازلا أو هبة ، بل أنه حق أساسى قديم قدم الخليقة ، ولو كان الأمر كذلك لخلق الله سبحانه وتعالى الخلق على شكل واحد ، ولخلق البشر بنفس الصورة ونفس اللون ونفس الطباع : وفى زمان تقاربت أطرافه إلى هذه الدرجة نجد أنفسنا فى موقف غريب ومفارقة أغرب ، ففى الوقت الذى يعنى التقارب العالمى تنازلنا بدرجة أكبر — وتنازل الآخرين بنفس القدر — عن جزء من ذواتنا حتى تصبح أكثر قدرة على التعايش معا ، فإن هذا التقارب يهدد تفردنا أو آخريتنا فى نفس الوقت ، وهكذا نصبح أكثر احتياجا عن ذى قبل لتأكيد هويتنا الوطنية والثقافية ، أى أننا لابد وأن نتنازل بمعنى ونؤكد ذواتنا بمعنى آخر .

المهم أن هذه الحقيقه الأبدية تحتم علينا التسليم ببعض الفرضيات ، فنحن لا نعيش بمعزل عن الآخرين ، أفكارنا لم تعد قاصرة فى تأثيرها على دائرتنا الصغيرة والضيقة ، قراراتنا لا يجب أن تتخــذ بمعزل عن الآخرين ، لأنها قرارات قد تؤثر فى الآخرين بقدر تأثيرها فينا نحن ،

وحينما يحدث ذلك فان ردود فعل الآخرين لافكارنا وقراراتنا تختلف بالضرورة عن ردود فعلنا نحن لهذه الافكار والقرارات .

خلاف الرأى واختلاف الهوى :

يرى أبو حنيفة سقوط القراءة عن المأموم ولو قرأ خلف الامام أثم . بينما يرى الشافعى وجوب قراءتها .. ولو تركها عمدا بطلت صلاته .

يرى الشافعى نقض وضوء من مس امرأة بشهوة ، أو بغير شهوة ، بينما يرى أبو حنيفة عدم نقضه سواء كان المس بشهوة أو بدونها .

لقد اختلفوا ومع ذلك قدر بعضهم بعضا .. ولم يعط أحدهم لنفسه حق التفرد بالحق فى موضوع النزاع .

ولكنهم تصرفوا طبق هذه القواعد :

— قولى صواب يحتمل الخطأ ، وقول غيرى خطأ يحتمل الصواب .

أى أن وجهة نظره التى يملك دليلها هى الحق فى نظره .. لكنه لا يحتكر النظر هنا تاركا الباب مفتوحا .. لكل رأى قد ينسخ رأيه .. وحينئذ فسوف يسلم به .

ومن هنا كان قولهم :

١ — اذا صح الحديث فهو مذهبى .

٢ — اذا تعارض قولى والحديث ، فاضربوا بقولى عرض الحائط .

انه كما قيل بحق :

خلاف فى الرأى .. الباحث فى النهاية عن الحق .

وليس هو الاختلاف المحكوم بالأمزجة المتقلبة .

وهو الخلاف الصادر من مشكاة واحدة.

هى : توخى الحق أولا وآخرا .

هذا ما يشير إليه قول عثمان رضى الله عنه حين عوتب فى ايثار أقربائه بالوظائف.

فقال : كان عمر يمنع أقرباءه .. لله

وأنا أعطيهم .. لله !!

يقول ابن تيميه[1] :

« وليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولا عاما يعتقد مخالفة رسول الله ﷺ فى شىء من سنته دقيق ولا جليل.

فانهم متفقون اتفاقا يقينيا على وجوب اتباع الرسول ﷺ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك الا الرسول ﷺ ولكن اذا وجد لو أحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلابد له من عذر بتركه.

وجماع الأعذار ثلاثة أصناف :

أحدها : عدم اعتقاده أن النبى ﷺ قاله.

والثانى : عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

والثالث : اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع الى أسباب عده ».

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام ٣/٤

سنة الاختلاف :

قال أبو حيان التوحيدى فى « الامتاع والمؤانسة » :

« وبعد ، فما دام الناس على فطرة كثيرة ، وعادات حسنة وقبيحة ، ومنا شيء محمودة ومذمومة .

وملاحظات قريبة وبعيدة .

فلا بد من الاختلاف فى كل ما يختار ويجتنب .

وانك لترى العجب فى مملكة الانسان :

يتجاورون الناس ، ويساكن بعضهم بعضا .. ثم يشاهدون :

(أ) مرئيات كونية واحدة .

(ب) حقائق تاريخية ثابتة .

(ج) يسلمون ببدهيات عقلية .

(د) ويسلمون أيضا ببدهيات نفسية .

(ه) ويجمعون على أسس أخلاقية واحدة .

ومع كل هذه الأسباب الجامعة ، فانهم يختلفون !!

ومعنى ذلك : وجود الاختلاف مع تحقق دواعى الاتفاق .

وعلى قدر تفاوت الناس فى درجات التفكير تكون مسافة الخلف بينهم ، تضيق هذه المسافة ، وتتسع .. طبق ما يتوفر لهـا من عناصر الحكمة الضابطة ، ان الاختلاف سنة اجتماعية تفرض نفسها :

« ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » .

[سورة هود ١١٨]

أسباب الاختلاف :

« أعلم أن أول شبهة وقعت في الخليقة شبهة ابليس لعنه الله ومظهرها :

استبداده بالرأي في مقابلة النص .

واختياره الهوى في معارضة الأمر .

واستكباره بالمادة التي خلق منها وهي النار على مادة آدم عليه السلام وهي الطين .

وانشعبت من هذه الشبهة سبع شبهات .

وسارت في الخليقة ، وسرت في أذهان الناس حتى صارت مذاهب بدعة وضلالة »[1] .

ويمكن تلخيص أسباب الاختلاف المنبثقة عن موقف ابليس اللعين فيما يأتي :

الجهـــل :

لقد كان الجهل وما يزال مانعا من الوصول الى الحق :

يقول سبحانه : « واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قال انما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون »[2] .

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ج ١٦/١ .

(٢) الأحقاف ٢١ : ٢٣

وعن قوم موسى يقول سبحانه : « قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون »[1] .

التقاليد الموروثة :

وعن تحكم التقاليد الموروثة وصدها عن الحق مهما كانت درجة وضوحه .

يقول سبحانه: « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون »[2] .

ولقد سئل أحدهم عن محمد ﷺ فقال :

أنا أعرف ابنى وأعرف محمداً .. ومعرفتى بمحمد أشد ..

ومع ذلك . فقد فرضت عليه التقاليد البالية أن يبقى أسير هذه التقاليد .

التعصب للرأى :

بحكم فطرة الإنسان الخيرة فإنه يتجه إلى الحق ..

إنه يحبه .. ومن ثم .. يبحث عنه .

وقد يصل إليه ..

وإن لم يصل إليه .. فإنه يتصوره ..

وقد يكون فى تصوره مخطئاً ..

بل .. وربما تغريه مخيلته .. باختراع صور للحق من نسج خياله ..

---

(١) الأحقاف ١٣٨ (٢) البقرة ١٧٠

ولا أساس لها فى الواقع ..

وقد يغلبه هواه .. فيحسب وحمه حقاً ..

ثم يبدأ فى الدفاع عنه .. كقضية مسلمة .

وقد يحقق نصراً مبدئياً .. فيغريه ذلك بالانتقال من موقع الدفاع عن رأيه .. إلى الهجوم على من يخالفه فيه .. ولو كان محقاً ..

فإذا أخذنا فى الاعتبار أن آراء الإنسان هى «بنات أفكاره» ، تأكد لنا كيف تكون عزيزة عليه كبناته من صلبه !! ومهما كانت بعيدة عن الجادة ..

وقد يشتد التعصب للرأى حتى ليختلط رأى المتعصب بذاته ..

ومن ثم فهو يدافع عن ذاته لا عن فكرته . أو يدافع عنهما معاً ..

وبالتالى فكل من يجادله إنما يضع ذاته فى معرض المساومة.. ومن ثم يتصدى له .

مع أن الفكرة ينبغى أن تظل منفصلة عن صاحبها .

وحين حزن الصحابة على وفاة رسول الله — ﷺ إلى حد أظهرهم وكأنما ينكرون عليه صاحبها ..

عندماحدث ذلك لفت الحق سبحانه وتعالى أنظارهم إلى ضرورة فصل الفكرة عن الإنسان :

فمحمد ﷺ بشر .. ويموت كما يموت البشر ..

أما دعوته فشىء آخر . . وستبقى من بعده أبداً .. . وهذه هى مسئوليتكم .

سوء الفهم وسوء النوايا :

وقد يسوء الفهم عن قصد أو غير قصد .. فيترك ذلك أثره على مجرى الحوار فينحرف به عن الجادة ..

وقد يتطور إلى مؤامرة يراد به بلبلة الأفكار حتى لا تصل فى موضوع النزاع إلى قرار .. عن طريق إلقاء الشبه والتأويلات التى لا تغنى عن الحق شيئاً .

وصدق الله إذ يقول :

« ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق»(١) ،

تفسير المفاهيم :

التلاعب بالألفاظ .. ومحاولة تغيير مفاهيمها .. كانت إحدى وسائل الأعداء فى النيل من الإسلام ،

يقول الإمام الغزالى فى ذلك :

(اعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامى المحمودة. وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول ،

وهى خمسة ألفاظ :

الفقه . والعلم ، والتوحيد ، والتذكير ، والحكمة ،

فهذه أسام محمودة ، والمتصفون بها أرباب المناصب فى الدين .

ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة ،فصارت القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامى عليهم) :

(١) الكهف ٥٦ (٢) الإحياء ح١ —٢٨ بتصرف .

ثم بين أن اسم الفقه كان يطلق فى العصر الأول على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، والتطلع إلى نعيم الآخرة ..

تخصص فى هذا العصر: بمعرفة الفروع الغريبة فى الفتاوى .. والوقوف دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها .. وحفظ المقالات المتعلقة بها.

وكان لفظ العلم يطلق على العلم بالله تعالى، وبآياته وأفعاله فى عباده فنقلوه حتى صار علماً على من يشتغل بالمناظرة مع الخصوم فى المسائل الفقهية وغيرها،

وكان التوحيد عند الأولين:

أن يرى الإنسان الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته إلى الأسباب فلا يرى الخير والشر إلا منه سبحانه ..

وصار الآن عبارة عن:

صناعة الكلام .. وطرق مجادلة الخصم، والإحاطة بها والقدرة على التشدق بها .. وإثارة الشبهات!!

والتذكير هو ما عناه الله تعالى بقوله: «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين»، فنقل إلى ما تراه الآن بضاعة الوعاظ من:

الأشعار. القصص. الشطح.

والحكمة هى التى أثنى الله عز وجل عليها فقال:

يؤتى الحكمة ..

فصار اسم الحكيم يطلق على الشاعر، والطبيب، والمنجم»(١).

---

(١) أنظر الإحياء جـ ١ — ٢٨: ٣٤

ومن واجبنا أن نحمى الكلمات الجليلة فى حياتنا من الاستهلاك والتآكل والاستغلال .

نريد أن نعلنها « منطقة حرام » تلك المساحة التى تضم مختلف رموز وصياغات مثلنا العليا .. دينية كانت أم دنيوية .

حتى لا تستدرج إلى الشارع فى غفلة منا . فلا تبتذل على الأرصفة .

ولا تطرح فى السوق . لتكون مادة للاستظراف أو وسيلة للدعاية والاعلان .

باختصار :

نريد لتلك الكلمات . بما تحمله من معان وقيم . أن تظــل نجوما يستضاء بها . ومنارات ترشد النفس إلى الحق والخير . ورصيدا فى الضمير العام :

يؤمنه . ويبعث فيه من الثقة . بقدر ما يثير من الاجلال[1] .

الإسلام والرأى الآخر :

(ادعى بعض الباحثين من المستشرقين أن أنصار الإسلام فى عهد النبوة . وما وليه من حكم الخلافة الراشدة . قد عملوا على محق الشعر المعارض للدعوة الإسلامية . فلم يجرؤ أحد من الرواة على روايته . ولا من المؤلفين على تدوينه . وسار على هذا النهج خلفاء العهد الأول . فحالوا دون رواية كل شعر يعارض الإسلام . أو ينسب لكبار المشركين فى عهد النبوة . أو لخصوم هذا الإسلام فيما تلا هذا العهد من عصور . هذا ما ادعاه « مرجليوث » ومن تبعه من الباحثين)[2] .

(١) الأهرام مارس ١٩٨٦ .

(٢) التضامن الإسلامى رجب ١٣٩٩ د . البيومى .

وقد فند الكاتب هذا الزعم بما روى من أشعار بلغت فى معارضة الإسلام ما يشبه التحدى .

ويكفى ما رواه ابن هشام فى غزوة بدر وحدها دليلا على تخرص من يرمون بالدعاوى الكاذبة عن عمد كذوب .

فقد ظل «الأخطل» يعيش بحبوحة النعيم . وفى ظل الدولة الإسلامية . وهو القائل :

ولست بصائم رمضان عمرى ولست بآكل لحم الأضاحى ولست بقائل ما دمت حيا قبيل الصبح حى على الفلاح .

ونضيف إلى ذلك : أن القرآن الكريم سجل دعاوى المبطلين على فسادها .. ثم كر عليها فدمرها تدميرا .

ونقرأ فى ذلك قوله تعالى :

(فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين .

أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون .

أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون (١)

بل أن صدر الإسلام ليتسع لكل رأى مهما بلغ فى الانحراف منتهاه شريطة أن يكون مع صاحبه دليله ..

يقول سبحانه :

(ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه أنه لا يفلح الكافرين)(٢).

---

(١) الطور ٢٩ : ٣٣ (٢) المؤمنون ١١٧

أهمية الجدل :

ومن أجل هذه الأسباب كان لابد من الجدال تحريرا للحق من شوائب الباطل ..

وكان من الضروري وضع آداب تصونه كي يخدم الحق ويدحض الباطل .

أنه أحد الوسائل الجدية في مواجهة خصوم ماكرين .

يقول المرحوم الشيخ حسن مأمون في تحديد مسئوليتنا :

(إذا كان المسلمون قد استقبلوا قضايا الإسلام بالثقة بها . والغيرة عليها . لأنها من عند الله .

فإن من واجبهم أيضا : أن يؤكدوا هذه الثقة بالمقارنة بين كمال شرعة الخالق . ونقص ما انتهى إليه المخلوق .

حتى يكون مع الثقة دليلها . ومع الغيرة حيثياتها) .

قال ابن تيمية :

(فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفى بموجب العلم والإيمان . ولاحصل بكلامه شفاء الصدور . وطمأنينة النفوس . ولا أفاد كلامه العلم واليقين)[١] .

والنكوص عن هذه الوظيفة بحجة أن الجدل باطل ضعف أى ضعف وتقصير في أداء الرسالة :

يقول ابن حزم في كتابه « أصول الأحكام » .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل جـ ١ ص ٣٥٧ .